

ركب الحج الجزائري والطريق الى بلاد الحرمين الشريفين خلال الفترة الوسيطة
Le pèlerinage algérien et route vers la mecque pendant la période médiévale
The Algerian pilgrimage and road to the Mecca during the medieval period

د. علي عشي. أستاذ محاضر "أ"

قسم التاريخ والآثار. جامعة باتنة 01 (الجزائر)

Maktoob72@gmail.com

تاريخ الاستلام: 21 - 12 - 2018 تاريخ القبول: 24 - 01 - 2019 تاريخ النشر: 28 - 05 - 2019

الملخص:

الحج ركن هام من أركان الإسلام ومن أجل ذلك اعتنى المسلمون وحكامهم بالحج منذ فجر الإسلام فاهتموا بحفر الآبار والعيون في الطرق المؤدية إلى البلاد الحجازية، وأنفقوا المال الكثير لتجهيز هذه الطرق بكل مستلزمات الرحلة و أماكن للإقامة وتوفير الأمن بل وإنشاء موكب سنوي دائم للحج والعناية بالحجاج.

وعُرف أهل المغرب الأوسط كغيرهم من المغاربة عبر تاريخهم الإسلامي الطويل بحرصهم الكبير على أداء فريضة الحج، وما سنحت لهم به هذه المناسبة السنوية من فرص اللقاء والتواصل مع إخوانهم المسلمين، فضلا عن أن رحلة الحج ذهابا وإيابا كانت تتخللها لقاءات علمية بين أهل العلم من شيوخ وطلبة.

وسلك حجاج المغرب الأوسط ثلاث مسالك وطرق مؤدية الى الحرمين الشريفين منها الطريق البري الداخلي والطريق الصحراوي والطريق البحري ولم يكن كل طريق ثابت بل يتغير من فترة لأخرى حسب الظروف الطبيعية والسياسية وحتى الاقتصادية.

الكلمات المفتاحية: الحج، المغرب الأوسط الركب، المسالك، الطرق، الحرمين

الشريفين.

المؤلف المرسل: د. علي عشي ، الإيميل: *Maktoob72@gmail.com*

Abstract:

Pilgrimage is an important pillar of Islam. For this reason, the Muslims and their rulers took care of Hajj since the dawn of Islam. They took care of drilling wells and springs in the roads leading to the Hijaz country, and spent much money to prepare these roads with all the necessities of the journey and places to stay and provide security. The people of the Mid Maghreb, like other Maghribins, knew through their long Islamic history their keenness to perform the Hajj, and the annual occasion of their opportunity to meet and communicate with their Muslim brothers, as well as the pilgrimage back and forth was interspersed with scientific meetings between the scholars of the elders and students .

keywords: Pilgrimage, Mid Maghreb riding, tract, roads, the two Holy Mosques.

مقدمة:

الحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام حيث يقول الله تعالى "ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا"⁽¹⁾، وقد عرف المغرب منذ الفتح رحلات حج متنوعة ومختلفة لكن كانت بمبادرات شخصية، ولعل أقدم ما بلغنا من صدى عن هذا الركب يرجع إلى أواسط العهد الموحد، ولكثرة ما تملك المغاربة من هيام بتلك البقاع تعددت الركاب المغربية، وهكذا فبعد (الركب الصالحي) من أسفي، تكوّن "الركب الفاسي" والركب "الزياني" ثم الركب السجلماسي والمراكشي والشنقيطي.

وعُرف أهل المغرب الأوسط كغيرهم من المغاربة عبر تاريخهم الاسلامي الطويل بحرصهم الكبير على أداء فريضة الحج باعتبارها ركنا من أركان الاسلام أولا، وما سنحت لهم به هذه المناسبة السنوية من فرص اللقاء والتواصل مع إخوانهم المسلمين من أقطار

المسلمين من أقطار الاسلام الأخرى، فضلا عن أن رحلة الحج ذهابا وإيابا كانت تتخللها لقاءات علمية بين أهل العلم من شيوخ وطلبة⁽²⁾.

وكان المغرب الأوسط "الجزائر" همزة وصل بين الأندلس و المشرق، كما كان المغاربة في مقدمة الشعوب المحبة للرحلات و الإطلاع إلى أحوال الأمم، وكان للدين الإسلامي الفضل الأكبر في غرس الرحلة في نفوسهم بالذهاب إلى الحجاز لأداء فريضة الحج وطلب العلم و التجارة⁽³⁾ ثم إلى الشام لزيارة الأماكن المقدسة.

ومن هنا يمكننا طرح إشكالية رئيسية ركب الحج الجزائري والطريق الى بلاد الحرمين الشريفين، بين الجهود الشخصية ومساهمات الدولة .

أهمية الدراسة : 1- إبراز دور الحجاج الجزائريين في تثبيت الركن الخامس في صفوف الشعب

2- إظهار الدور الحضاري الثقافي للركب الزباني.

3- تتبع أهم المسالك والطرق التي يتبعها حجاج الجزائر للوصول الى البيت الشريف

المنهج المتبع: ان طبيعة الموضوع تتطلب استخدام المنهج التاريخي من خلال سرد بعض الاحداث التاريخية، والمنهج الوصفي لتتبع سير الرحلات الحجية.

أولا: موكب الحج في المغرب الاوسط جذور واستمرا.

(2) محمد بن معمر: رحلات الحج من المغرب الاوسط الى مكة المكرمة خلال العصر الوسيط، مجلة الحضارة الاسلامية، معهد الحضارة الإسلامية وهران، المجلد 18، العدد 1، ربيع الثاني 1439هـ /ديسمبر 2017، ص 278.

(3) عواطف محمد يوسف: الرحلات المغربية والأندلسية، مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين 7هـ و 8هـ، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 1996، ص 77.

ركب الحج الجزائري والطريق الى بلاد الحرمين الشريفين خلال الفترة الوسيطة

الحج في الاسلام هو فرض عين وجبت تأديته على جميع المسلمين، مما أضفى عليه أهمية وشهرة واسعة في كامل البلاد الاسلامية والمغرب الاسلامي أكيد هو جزء منه، واعتاد أهل الغرب الاسلامي تأديته في موكب جماعي ظل يعرف إلى عهد قريب بركب الحاج المغربي، والذي كان يشكل الاطار الامثل والوسيلة الانجع لتمكين أكبر عدد ممكن من أهل المغرب من أداء مناسكه⁽⁴⁾.

ومن الدلائل على وجود قوافل الحج المنطلقة من أنحاء المغرب الاسلامي إلى مكة أشار ناصر خسرو إلى قافلة عظيمة أتت من بلاد المغرب سنة 440هـ/1048م وتعرضها للمخاطر في المدينة المنورة⁽⁵⁾.

وهذا يدل على أن قوافل الحج كانت موجودة ولها أوقات محددة للانطلاق من أنحاء المغرب كلها لتصل الى مكة في الوقت المناسب، إلا أن تلك القوافل لم تكن تخرج مع أمير للحج يتولى أمرها، ويعود السبب في ذلك إلى كثرة القوى السياسية التي تحكم المناطق من المغرب الاسلامي، وأن خروج أمير حج رسمي يمثل إحدى تلك القوى سيعرضه والحجاج الذين معه إلى المخاطر من قبل القوى الأخرى، لذلك كانت رحلات الحج المغربية الى مكة رحلات شخصية وتخرج بجهود شخصية⁽⁶⁾.

وخير مثال على ذلك العداء السياسي بين العباسيين والاباضيين في المغرب الاوسط، لهذا أحجم الامام عبد الوهاب بن رستم(171-211هـ/787-826م) عن أداء فريضة الحج خشية الوقوع في يد العباسيين ودعم ذلك بفتوى من فقهاءهم، بسقوط الحج لعدم

4) دعاء عبد الرحمن علي: ركب الحاج المغربي وأثره على الاوضاع الاقتصادية في مصر في العصر المملوكي "الأسواق أنوذجا" مجلة الانسان والجمال، معهد العلوم الانسانية والاجتماعية، المركز الجامعي، البيض، الجزائر، العدد 5، أفريل 2017، ص7.

5) سفر نامة، رحلة ناصر خسرو الى لبنان وفلسطين والجزيرة العربية في القرن الخامس الهجري، نقله الى العربية يحيى الخشاب، دار الكتاب الجديد، بيروت، ص112.

6) وجدان فريق عناد: صور من حج الزعماء والحكام في المغرب العربي الاسلامي حتى نهاية عصر الموحدين، المجلة الدولية للبحوث والدراسات الانسانية، العدد2، المجلد2، ديسمبر2016، ص77.

الامان⁽⁷⁾، ولما استقرت الامور لعبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، فاستخلف ابنه أفلح، واصطحب زوجته وجمع كبير من رجاله وسلك عبد الوهاب الطريق الصحراوية المارة بقسطيلية وجبل دمر جنوب قابس، وصولا الى جبل نفوسة⁽⁸⁾.

كما تذكر المصادر الاباضية أن الامام الرستمي أفلح بن عبد الوهاب (208-258هـ) طلب منه ابنه أبو اليقضان محمد الاذن له بالحج، فسمح له بالخروج مع ركب من الحجاج الاباضيين الذين وردوا مكة سنة 238هـ، فاكتشف أمره بني العباس السنين فأسروه⁽⁹⁾، حيث أمر الخليفة العباسي الواثق بحبس أبي اليقضان، وفي السجن التقى أبو اليقضان بالمتوكل أخ الخليفة الواثق فأصبح صديقا حميما له، وسيصبح لهذه الصداقة أثرها في حياة أبي اليقضان بعد ذلك⁽¹⁰⁾ ولما علم أفلح بما حدث لولده أبي اليقضان اشتد حزنه عليه وطال غمه به فلم يزل مهموما محزوننا إلى أن وافته المنية سنة 240هـ/854م⁽¹¹⁾.

وتسبق موكب أو ركب الحج مظاهر من الاستعداد والاهتمام حيث تمدنا المصادر بمعلومات وان كانت قليلة عن هذا الاستعداد حيث تخرج أطلاب السلطان من كل أرجاء البلاد وفيها الخيل والهجن، وتصنع القدور وتحمل على الجمال ليطبخ فيها وعرف ركب الحج تطورا خلال العهد الموحي من حيث التنظيم والاستمرارية، إذ تأسس أول ركب حج مغربي بالمعنى الحقيقي وهو الركب الصالحي، على يد أحد أعلامهم

7) عبد الرزاق محمود اسماعيل: الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1985، ص186.

8) السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير في العصر الاسلامي، دراسة تاريخية و عمرانية وأثرية، الدار القومية للطباعة والنشر، الاسكندرية، ص237.

9) ابن الصغير المالكي: أخبار الأئمة الرستميين، بيروت، دار الغرب الاسلامي، 1986، ص64.

10) الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، حققه وقام بطبعه إبراهيم طلاي، مطبعة البعث، قسنطينة، بدون سنة، ج1، ص26.

11) الباروني: الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، تحقيق وفهرسة أحمد كروم عمر بازين، مصطفى ابن ديسو، تقديم إبراهيم بن بكير بحاز أحمد بن سعود السيابي، الطبعة الثانية 1423 / 2002، ج2، ص221.

ركب الحج الجزائري والطريق الى بلاد الحرمين الشريفين خلال الفترة الوسيطة

وهو الشيخ الامام الداعية أبي محمد صالح الماجري المتوفي 631هـ وقد ظل هذا الركب ملتزما في هابه وأيابه بنفس الطريق مرورا بالمغرب الاوسط⁽¹²⁾.

واقترن تنظيم أول ركب رسمي في هذا العصر بالتوسع المريني في أراضي المغرب الاوسط الذي قام به السلطان أبو يعقوب يوسف الناصر (685-706هـ) حين حاصر تلمسان مدة ثماني سنوات ابتداء من سنة 698هـ/1299، وبما أن هذا الركب أول ما بعثه المرينيون فقد كان يكتسي أهمية خاصة، ونظمه السلطان يوسف أحسن تنظيم وأمر باستنساخ مصحف رائق الصنعة، كتبه أحمد بن حسن البلياني التلمساني⁽¹³⁾.

وفي هذا يقول ابن خلدون "لما استولى السلطان على المغرب الأوسط بممالكه وأعماله، وهنأته ملوك الأقطار وأعراب الضواحي والقفار، وصلحت السابلة ومشيت الرفاق إلى الآفاق، استجد أهل المغرب عزما في قضاء فرضهم. ورجبوا من السلطان إذنه لركب الحاج في السفن إلى مكة، فقد كان عهدهم بعد بمثلها لفساد السابلة واستهجان الدول. فسمما للسلطان في ذلك أمل ودخله بحرم الله وروضة نبيه الشوق، فأمر بانتساخ مصحف رائق الصنعة كتبه ونفقه أحمد بن حسن الكاتب المحسن. واستوسع في جرمه وجعل غشاه من بديع الصنعة، واستكثر فيه من مغالق الذهب المنظم بخرزات الدر والياقوت"⁽¹⁴⁾.

كما أشار محمد المنوني إلى وثيقة معاصرة وهي رسالة صادرة عن السلطان يوسف المريني إلى كبير أشرف آل أمغار بالمغرب الاوسط يلتمس فيها تعيين ثلاثة رجال منهم ليتوجهوا إلى بلاد الحرمين الشريفين، لحمل المصحف وكسوة الكعبة وهي مؤرخة في 11

12) محمد بن معمر: المرجع السابق، ص280.

13) كان قاضي للجماعة وتولى خطة شهداء بيت المال وأشرف على خطط العدالة وهي الشهادة على الداخل والخارج. ابن مرزوق الخطيب: المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق ماريّا خيسوس بيقيرا، الجزائر، تقديم محمد بوعياض، المكتبة الوطنية الجزائرية، 1981، ص313.

14) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر، ومن عصرهم من ذوي الشأن الاكبر، ضبط خليل شحادة، وسهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 2000، ج7، ص298-299.

صفر 703هـ/1303م⁽¹⁵⁾، وانطلق الركب من مدينة تلمسان في شهر ربيع الأول من سنة 703هـ/1303م، وعاد هذا الركب الى تلمسان في ربيع الثاني سنة 704هـ/1304م⁽¹⁶⁾.

وفي شهر ربيع الأول من السنة الموالية وهي سنة 704هـ، جهز السلطان يوسف ركبا رسميا آخر من تلمسان جعل إمارته لعلاء الدين أيدغدي⁽¹⁷⁾، وبعد استرجاع بني عبد الواد سيادتهم نظموا ركب الحج الخاص بهم من تلمسان في شهر بيح الاول سنة 724هـ/1324م وترأسه الامير أبو زكريا يحيى بن عمر بن جرار العبد الوادي⁽¹⁸⁾، وكان ضمن الركب ابن مرزوق الوالد⁽¹⁹⁾.

ويقول ابن مرزوق عن السلطان ابي الحسن المريني أنه كان يعمل على تمهيد السبيل لحجاج بيت الله، وكان دأبه المعونة على الوجهة لهذا العمل، ويجهز الركوبات دائما من المغرب، ولما نزل تلمسان وحاصرها كان أعظم ما نقم على صاحبها تعرضه للمتوجهين من المغرب برسوم الحج، ولما فتحها صار يعين في كل سنة ركبا متوجها الى الحج⁽²⁰⁾.

15) محمد المنوني: ورقات عن حضارة المرينيين، منشورات كلية الآداب، الرباط، 1996، ص 173.

16) محمد بن معمر: المرجع السابق، ص 283.

17) ابن خلدون: العبر، ج 5، ص 481-482.

18) ابن خلدون: العبر، ج 7، ص 152-153.

19) ابن مرزوق الخطيب التلمساني: المناقب، تحقيق سلوى الزهاري، منشورات وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية، الرباط، 2008، ص 301.

هو أبو العباس أحمد ابن مرزوق (681-741هـ/1282-1340م) قدم جده من مراكش الحروسية وكان صاحب مال وثرة ثم استوطن تلمسان ومارس مهنة الحاكة، وقد حج سنة 724هـ وسنة 735هـ. ابن مرزوق: المناقب، ص 188-272.

20) ابن مرزوق الخطيب: المسند، ص 385؛ ومحمد بن معمر: المرجع السابق، ص 288.

ركب الحج الجزائري والطريق الى بلاد الحرمين الشريفين خلال الفترة الوسيطة

كما هياً هذا السلطان ركب للحج يوم 25 ربيع الأول سنة 738هـ/1338م ينطلق من مدينة تلمسان تحت قيادة أبو سعيد عثمان بن يحيى بن محمد بن جرار التلمساني، وقد استقبل هذا الوفد في القاهرة استقبالا كبيرا⁽²¹⁾.

ثانيا: مسالك الحج في المغرب الاوسط من خلال نماذج من رحلات حجية شهيرة لا يمكن الحديث عن بداية الحج في المغرب الأوسط الجزائر" بمعزل عن بلاد المغرب الإسلامي بسبب الترابط الجغرافي واللحمة الاجتماعية، والتكامل في الطرق والمسالك⁽²²⁾.

والطرق التي يسلكها الحجاج المغاربة للوصول إلى مكة المكرمة عدة طرق منها الثابت والمتغير، وتبين من خلال الرحلات أن الطريق لم يكن نفسه، وإنما تعدد بين الطريق البحري بركوب البحر الأبيض المتوسط إلى غاية الاسكندرية مروراً بأراضي مصر فالبحر الأحمر في حين أغلب المغاربة اعتمدوا المسلك البري، الذي تنوع هو الآخر بين المناطق الداخلية والطريق الصحراوي، ويتحكم في ذلك مجموعة من الاسباب منا الظروف السياسية والأمنية والاقتصادية⁽²³⁾.

(أ) الطريق البري:

مثلته عدة رحلات حجية مختلفة من الغرب الى الشرق ومن الشرق الى الغرب من خلال خط العودة، وكان هذا الطريق أكثرها انتشاراً وشيوعاً لكونه لا يتطلب امكانيات كبيرة، رغم ما يكتسبه من اخطار طبيعية وسياسية واجتماعية متعددة، ومن الرحلات البرية المهمة رحلة العبدري.

21) المقرئ: نفع الطيب من غصن الاندلس الرطيب، تحقيق احسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968، ج4، ص401-404.

22) محمد بن معمر، المرجع السابق، ص278.

23) فوزية كراز: مسالك الحجاج المغاربة من خلال بعض الرحلات المغربية الرحلات الحجازية، مؤتمر طرق الحـج في إفريقيا،

مركز البحوث والدراسات الإفريقية - جامعة إفريقيا العالمية، 2016، ص1.

لقد انطلقت رحلة العبدري في 25 ذي القعدة عام 688هـ/11 ديسمبر 1289م⁽²⁴⁾ وكان الانطلاق من مدينة حاحة⁽²⁵⁾ المغربية⁽²⁶⁾. هذه الرحلة سماها "ما سعى إليه الناظر المطرق إلى بلاد المشرق" ويسمها البعض ب"ملء العيبة فيما اجتمع بطول الغيبة في الرحلة إلى مكة وطيبة"⁽²⁷⁾، وتعرف عادة بالرحلة المغربية.

وكان وراء رحلة العبدري سببان حملاه على المضي فيها، أولهما: سبب ديني وهو القيام بفريضة الحج والاتصال بالمتصوفة والصالحين، وقد صرح العبدري مرارا بأنه كان ينوي الإقامة بمكة والمجاورة بها.

وسبب ثانٍ هو رغبته في لقاء العلماء والمشايخ والأخذ عنهم، وكان العبدري حريصا على البحث عن السند العالي، فيما أخذه عن هؤلاء العلماء والمحدثين، وكان العبدري في سؤال دائم عن الأحوال العلمية والثقافية في البلاد التي مر بها.

أما بخصوص المناطق التي اجتازها في المغرب الأوسط فقد بدأها بالمفازة⁽²⁸⁾ التي في طريق تلمسان، حيث كانت طرقا مقطوعة بسبب قطاع الطرق من الأعراب، وقد اجتازها بفضل مساعدة رجال مسلحين عارفين بالطرق⁽²⁹⁾، وهو ما يبين لنا الأوضاع المتردية خلال فترته من انتشار اللصوصية وقطاع الطرق، كما يبين العدد الكبير من الحجاج وهو ألف أنه

24) عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1983، ج6، ص401.

25) حاحة: هي إقليم يحده من الغرب والشمال المحيط الأطلسي، ومن الجنوب جبال الأطلس ومن الشرق نهر أسيف نوال، ويشتمل على مدن كثيرة أنظر الوزان: وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي، و محمد الأخضر، ط2، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1983، ج1، ص95.

26) العبدري: الرحلة المغربية، تحقيق علي إبراهيم كردي، دار سعد الدين للطباعة والنشر، ط2، 2005، ص40.

27) عمر فروخ: تاريخ الأدب، ج6، ص402.

28) المفازة: البرية المقفرة المهلكة وسميت بذلك تفاقولا من الفوز والنجاة. إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، دار الدعوة، إستنبول، الطبعة الثانية، 1989م، ج3، ص184.

29) العبدري: المصدر السابق، ص45.

ركب الحج الجزائري والطريق الى بلاد الحرمين الشريفين خلال الفترة الوسيطة

ركب منظم لكنه غير رسمي، وأن تلمسان كانت محطة رئيسية لقوافل الحج المرتحلة من الجهات الغربية لبلاد المغرب الاسلامي⁽³⁰⁾.

ثم وصل إلى تلمسان، فوجدها بلداً حلت به زمانة(الآفة)، وقد شاهد جمعا من الحجاج ينيفون على الألف وردوها ووقفوا إلى أميرها الزياني أبي سعيد عثمان(681-703هـ)⁽³¹⁾، فأعطاهم دينارا واحدا فقط⁽³²⁾، وهو دليل على انتشار الفقر وضعف اقتصاد الدولة الزيانية مما منع الملك من العطاء والكرم على حجاج بيت الله الحرام، كما نستشف من كلامه رواج التجارة بين فاس وتلمسان في الطريق البري الذي سلكه العبدري: فاس-وجدة-تلمسان، كما يبين لنا قوله: "وكنت حين وردتها قد أقمت بها مدة منتظرا للركب"⁽³³⁾ أي ركب الحجاج وهو ما يعرف بطريق الحج البري من بلاد المغرب الأقصى إلى البقاع المقدسة. وعند وصول الركب، سار معهم قاصدا مدينة مليانة الخصيبة كما يصفها والتي تشرف من كثب على واد الشلف⁽³⁴⁾، وقد كان تنقلهم برا عبر هذه الطريق، حيث تعتبر مليانة من المدن المهمة تجاريا، ومسلكيا، بفضل موقعها إذ يمر عليها المتوجه إلى الجزائر برا أو المتوجه نحو البحر في اتجاه كل من تنس وشرشال.

30) محمد بن معمر: المرجع السابق، ص281.

31) ملك الدولة الزيانية في هاته الفترة هو أبو سعيد عثمان بن يغمراسن بن زيان ملك تلمسان بين سنة681-703هـ. عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، دار الأمة للنشر والطباعة، الجزائر، 2011، ج2، ص73.

32) العبدري: المصدر نفسه، ص47-48.

33) نفسه، ص54.

34) نفسه، ص78.

واصل السير منها إلى مدينة الجزائر، وهي مدينة تستوقف بحسبها ناظر الناظر، قد حازت مزيقي البر والبحر وفضيلتي السهل والوعر، لها منظر معجب أنيق وسور معجز وثيق وأبواب محكمة العمل⁽³⁵⁾.

وهو ما يبين بداية بروز مدينة الجزائر على الساحة المحلية والعالمية، بدل العواصم التقليدية كتلمسان وبجاية، كما يبين لنا التحصينات المحكمة لها مما يبين وجود خطر دائم يداهمها من البحر، سواء من الدول أو القرصنة البحرية.

لينتقل برا دائما إلى مدينة بجاية، وهي مدينة حصينة كبيرة مشهورة برية وبحرية، وثيقة البنيان عجيبة الإنقان، رفيعة المباني، موضوعة في سفح جبل وعر، مقطوعة بنهر، متحصنة بهما منيعة، فلا مطمع فيها لمحارب ولا متسع بها لطاعن وضارب⁽³⁶⁾، ونفس الشيء يقال عن بجاية حيث لم يقدم لنا العبدري سوى وصف بسيط عن حصانتها وبأنها بحرية وبرية⁽³⁷⁾، ولم يشر إلى النشاطات الاقتصادية الممارسة فيها، بل ركز على الجانب الثقافي، مما يجعل الرحلة قليلة الأهمية لوصف المناطق الساحلية، باستثناء ما تبرزه في بعض الحالات من مسالك برية وبحرية وكذا حصانة المدن ومنعتها أو وجود الخطر سواء من القرصنة أو الأعراب.

ثم تنقل من بجاية إلى بني ورار ثم إلى ميلة، مارا عليها مرور الكرام ويشير إلى بيتها وطبيعتها، سوى ذكر إحدى عيونها الجارية⁽³⁸⁾، مارا في حديثه نحو مدينة قسنطينة، التي وصفها بالمدينة العجيبة الحصينة، التي دار بها واد شديد الوعر بعيد القعر كما يحيط

(35) العبدري: المصدر السابق، ص82.

(36) نفسه، ص82-83.

(37) وهو كلام ذكره قبله الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، بيروت، عالم الكتب، ط1، 1989، ج1، ص259.

(38) العبدري: المصدر نفسه، ص93.

ركب الحج الجزائري والطريق إلى بلاد الحرمين الشريفين خلال الفترة الوسيطة

السوار بالمعصم ومنعها⁽³⁹⁾، ورغم قلة كلامه عن قسنطينة إلا أن مكانة قسنطينة بدأت في البروز كأحدى المدن الكبرى في الدولة الحفصية بل هي العاصمة الثالثة بعد تونس وبجاية. ورغم تركيز العبدري على الجانب الثقافي إلا أنه ذكر لنا الفقيه الإمام أبا الحسن اللخمي⁽⁴⁰⁾، وفتواه في حكم السفر إلى الحج مع فساد الطريق، وهل الأولى تركه احتياطاً على النفس أو الاستسلام في التوجه إليه⁽⁴¹⁾، واستحضار لهذه الفتوى في قسنطينة يبين فساد الطريق والخطر المهدد للحجاج خاصة من قطاع الطرق والأعراب، بسبب ضعف السلطة المركزية في كل من فاس وتلمسان وتونس.

ونلاحظ أن خط سير العبدري، كان نفسه خط سير ابن الفكون⁽⁴²⁾ سابقه في رحلته من قسنطينة إلى مراكش، ويتضح ذلك من خلال قصيدته التي لخصت الرحلة⁽⁴³⁾، ولهذا لم

(39) نفسه، ص 93-94.

(40) هو علي بن محمد الربعي المعروف باللخمي، فقيه مالكي قيرواني الأصل سكن سفاكس، وتوفي بها سنة 478هـ، له مصنفات منها التبصرة وهو تعليق على المدونة في فقه المالكية. ابن فرحون: السدياج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق مأمون بن محي الدين الجنان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1996، ص 298.

(41) العبدري: المصدر السابق، ص 96.

(42) الفكون هو الأديب والشاعر أبو علي حسن بن علي بن عمر القسنطيني المعروف بابن الفكون "أو البكور"، رحل من قسنطينة إلى مراكش ومدح خليفة بني عبد المؤمن. ابن القاضي: درة الحجال في أسماء الرجال، تحقيق محمد الأحمد أبو النور، دار التراث، القاهرة، والمكتبة العتيقة، تونس، ط 1، 1971، ج 1، ص 236.

(43) القصيدة طويلة وذكرها المقرئ في نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت، ط 1، 1997، ج 2، ص 283-284. ومما جاء فيها:

فلما جئت ميلاً خير دار	أما التي بكل رشا أبي
وكم أورت ظباء بني ورار	أوار الشوق بالريق الشهي
وجئت بجاية فجئت بدورا	يضيق بوصفها حرف الروي

يذكر العبدري بعض المدن التي مر بها مابين تلمسان ومليانة، وما بين الجزائر وبجاية وما بين بجاية وقسنطينة، بل ذكر مناطق أقل شهرة كمنطقة بني ورار، حتى يمثل نفس رحلة ابن الفكون.

ثم واصل العبدري السير من قسنطينة نحو مدينة بونة، التي قال عنها: "تغار لها العيون من جور النوائب ممتدة وتراعي من البحر جزره ومده، ومن المشاهدات التي رآها مصادفته زويرقا للنصارى لا تبلغ عمارته عشرين شخصا، وقد حاصروا البلد حتى قطعوا عنه الدخول والخروج، وأسروا من البر أشخاصا فأمسكهم للفداء بمرسى البلد، وتركناهم ناظرين في فدائهم"⁽⁴⁴⁾، وهذه شهادة حية من العبدري للخزي الذي بلغه المغرب الإسلامي في تلك الفترة والدرجة الكبيرة من الضعف أمام القراصنة الغربيين.

وفي أرض الجزائر هام قلبي	بمعسول المراشف كوثرني
وفي مليانة قد ذبت شوقا	بلين العطف والقلب القسي
وفي تنس نسيت جميل صبري	وهمت بكل ذي وجه وضي
وفي مازونة مازلت صبا	بوسنان المحاجر لوذعي
وفي وهران قد أمسيت رهنا	لظامي الخصر ذي ردف روي
وأبدت لي تلمسان بدورا	جلبن الشوق للقلب الخلي.

(44) العبدري: المصدر نفسه، ص104.

لقد تحدث أحمد البوني في القسم الخامس عشر من كتابه عن هجومات النصارى التي تحدث عنها العبدري فقال: "فإني قلت كم هجمت النصارى على بلدكم العناب، قلت: فيما أعلم أربع مرات أولاهن قريبة من زمن الشيخ الهواري، وقد كان في السادسة من عمره- لعله يشير إلى هجوم بيزة أعقبه احتلال المدينة سنة 426هـ/1034م- والثانية في حياة ابن عبد الجليل المذكور-هي حملة قامت بها فلنسية وميورقة سنة 801هـ/1399م وباءت بالفشل الذريع، والثالثة عام 982هـ/1574م والرابعة سنة 1016هـ/1607م. أحمد بن قاسم البوني: التعريف ببونة إفريقية بلد سيدي أبي مروان الشريف، تقديم سعيد دهماني، منشورات المجلس الشعبي البلدي، عنابة، الجزائر، ط1، 2001، ص76، و الهامش 84.

ركب الحج الجزائري والطريق الى بلاد الحرمين الشريفين خلال الفترة الوسيطة

أما خلال طريق العودة مرَّ على باجة ثم على خولان⁽⁴⁵⁾ ثم نحو مدينة بجاية، وأخذ

طريق

القلع⁽⁴⁶⁾، حيث يقول: وأخذنا طريق القلاع فدخلناها قلعة قلعة، وهي ذوات عدد، ثم على قسنطينة على الطريق الأول ثم على بجاية⁽⁴⁷⁾، أي أن العبدري لم يسر على نفس طريق العودة بسبب استيلاء النصارى على بونة بل سلك طريقاً من القلاع تربط بين خولان إلى بجاية.

ثم سافر من بجاية فمرَّ على قرية ملالة وهي بالقرب منها، ومنها إلى مليانة، ومنها جهة اليمين نحو مازونة التي لم يمر عليها في طريق الذهاب، وصولاً إلى مدينة وهران، التي قال عنها مدينة مليحة حصينة برية وبحرية، وهي مرسى تلمسان وأنظارها ومتجر تلك النواحي⁽⁴⁸⁾، ونلاحظ أن العبدري خلال مرحلة العودة ذكر مدناً لم يذكرها في طريق الذهاب وهي مازونة ووهران مما يبين تغييره لطريق العودة أو أنه خلال الذهاب لم يعرها اهتماماً، كما يتبين لنا أن وهران خلال هذه الفترة لم تكن لها أهمية لأنها ميناء تابع لتلمسان لتصريف منتجاته، وممارسته للتجارة.

45) خولان بلدة صغيرة تقع غرب باجة على ضفاف واد كساب الذي يصب في واد مجردة وتقريباً في الموضع الحالي سوق الأربعاء بمحافظة جندوبة. مراد عرعار: مقارنة حول طريق القلاع للعبدري، ضمن أعمال ندوة دولية شبكة الطرقات والمسالك ببلاد المغرب القديم والوسيط، سو60سة، من 6-8- أبريل 2015، نشر مخبر البحث "اشتغال الأرض، التعمير وأنماط العيش في بلاد المغرب في العصور القديمة والوسيطة"، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سوسة، ص78.

46) طريق القلاع البنزطية يبدأ من خولان ثم إلى قلعة شقبنارية، ومنها إلى ساقية سيدي يوسف إلى سوق أهراس إلى تيفاش إلى خميسة، إلى سلاوة عنونة إلى الهرية إلى قسنطينة إلى جيجل إلى بجاية. مراد عرعار: المرجع نفسه، ص90-91..

47) العبدري: المصدر السابق، ص558.

48) المصدر نفسه، ص561.

ثم من وهران توجه نحو تلمسان، وصادف قافلة كبيرة تزيد عن الألف خارجة منها نحو وجدة فقفل راجعا معهم⁽⁴⁹⁾، وهذا يبين استمرار الطريق البري رغم المخاطر.

أما عن رحلة ابن مرزوق الخطيب للحج سنة 724هـ، فقد اقتصر على ذكر المحطات الكبرى فقط في مسار موكبهم الحجى، وهي بجاية وقسنطينة وتونس والاسكندرية والقاهرة ومكة والمدينة⁽⁵⁰⁾.

حيث يذكر بأن الركب انطلق من فاس، وضم فقهاء من فاس وطنجة، ووصل الركب الى تلمسان، أين صاحبهم الفقيه أبو عمرو ميمون بن يوسف بن عبد الرحمن بن زاع، وابن يحيى أبو بكر بن عبد الواحد المقري صهر ابن مرزوق، ومن أهل مليانة الفقيه القاضي الصالح ابن زكرياء يحيى بن محمد وميمون الفاروندي⁽⁵¹⁾.

ثم دخل الركب بجاية المحروسة، ولقي بها مجموعة من العلماء ومنها نحو قسنطينة، ومنها الى تونس والاسكندرية والقاهرة ومنها الى مكة والمدينة⁽⁵²⁾، أما عن خط العودة فكان سنة 729هـ/1329م عاد الى المغرب الاوسط "الجزائر" على بلاد الجريد جنوب تونس وصولا الى تلمسان⁽⁵³⁾.

كما يمكننا الاستفادة من رحلة العياشي⁽⁵⁴⁾ خاصة أثناء عودته حيث سلك الطريق الداخلى أو طريق الهضاب العليا ولم يسلك الطريق الصحراوي الذي قدم منه، حيث يبين

49) نفسه، ص 563.

50) محمد بن معمر: المرجع السابق، ص 285.

51) ابن مرزوق الخطيب التلمساني: المناقب، ص 301.

52) نفسه، ص 301-305.

53) نفسه، ص 304.

54) هو عبد الله بن محمد بن أبي بكر بن يوسف بن موسى العياشي، ولد في 29 شعبان 1037هـ/4ماي 1628 م ورحلته الثالثة المدونة والتي كانت سنة 1072هـ/1661م، وتوفي بالطاعون سنة

ركب الحج الجزائري والطريق الى بلاد الحرمين الشريفين خلال الفترة الوسيطة

لنا أنه وصل الى توزر ضحى يوم الأربعاء الواحد والعشرين من شعبان 1072هـ/ 1663م، ووجد بها حجاج من أهل تونس وجربة، والتقى فيها بصاحبه الحاج سيدي سحراوي وهو من ركب حجاج الجزائر⁽⁵⁵⁾، وهذا يبين لنا أن لحجاج الجزائر "المغرب الاوسط" مشاركة هامة في ركب الحجاج في مختلف مسالكه.

ثم ارتحل من مدينة توزر يوم الاحد وبدأ الركب في المرور بمدينة نفطة بعدما كانوا عزموا على سلوك الطريق اليمنى على الحامة، وهي المعهودة للاركاب لاتصال عمرانها، ومنها وصلوا الى قرية الكلابية، أين وجدوا الجراد قد فعل فعلته، ومنها الى الرقيق وهي إحساء متعددة وماؤها صاف، ثم ارتحل الركب ونزل قرب الأعرج⁽⁵⁶⁾، وهي كلها قرى في المغرب الاوسط "الجزائر"، حيث وصلوا الى مدينة الخنقة، وهي المعروفة الآن بخنقة سيدي ناجي.

ثم ارتحل الركب منها أول يوم من رمضان يوم السبت نحو زريبة الوادي ضحى، وهي نصف الطريق بين الزاب وسيدي عقبة⁽⁵⁷⁾، وعند وصولهم لهذه الاخيرة وجدوها مملوءة بالوباء، مما جعل الحجاج يسارعون للخروج منها نحو بسكرة التي نزلوها ضحى يوم الاثنين وكان حالها كحال سيدي عقبة موبوءة مات على إثره نحو سبعين ألف نفس⁽⁵⁸⁾.

وكان ارتحال ركب الحجاج من بسكرة قاعدة بلاد الزاب يوم الخميس مارا بقرية أمليبي ثم بزواوية سيدي الشيخ عبد الرحمن الاخضري، ومنها الى بلدة تسمى لؤي ليصل الركب ظهرا

1090هـ/1679م . العياشي: اقتفاء الاثر بعد ذهاب أهل الاثر، تحقيق نفيسة الذهبي، 1996م مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ص 21-69.

(55) عبد الله بن محمد العياشي: الرحلة العياشبية 1661-1663، تحقيق سعيد الفاضلي، وسليمان القريشي، دار السويدي للنشر والتوزيع، الامارات العربية المتحدة، ط1، 2006، ج2، ص535.

(56) عبد الله بن محمد العياشي: المصدر نفسه، ج2، ص537.

(57) المصدر نفسه، ج2، ص538.

(58) العياشي: المصدر السابق، ج2، ص539-540.

الى المكان المسمى بالدويسة "الدوسن حاليا" بينه وبين أولاد جلال نحو من فرسخ، وهناك أحاط بهم خطر الأعراب، مما جعلهم يعدلون يميننا في أرض وعرة نحو العوينة، ثم دماك، ثم أولاد سيدي مخلوف، وصولا الى الأغواط في السادس عشر من رمضان⁽⁵⁹⁾، وارتحل الركب الى قرية الكراكة، ثم بوسمغون ثم نحو مكناسة وفاس⁽⁶⁰⁾.

ب) الطريق الصحراوي:

يستخلص مسلك الحجاج في جهة الصحراء من عدة رحلات وتنقلات منها:

رحلة الشيخ سيدي عبد الرحمن بن باعمر التتلائي(1189هـ) الذي اشتهر بين علماء عصره بكثرة رحلاته وتنقلاته طلبا للعلم أولا وزيارة للروضة الشريفة وأداء لمناسك الحج تانيا وهو في كل هذا قد أرخ لنا لرحلات أربع⁽⁶¹⁾.

وفي احدى رحلاته التي لا تزال مخطوطا دون رحلته الحجية التي جاءت تلبية لطلب أخويه في الله سيدي عومر بن سيدي عبد الرحمن، وابن عمه سيدي إدريس في أمر مرافقتهم الى الحج⁽⁶²⁾، كان الانطلاق من قصر تنلان بعد صلاة الجمعة العاشر من شهر جمادي الثانية سنة 1188هـ، ثم نزل مدينة تمنطيط أصفرار وأقام بها يوم السبت ومنها نحو زاوية الجديد ثم زاوية الرقاد وباتا فيها ومنها نحو قرية بوعلي وزار بها قبر الولي الصالح العلامة سيدي محمد بن عبد الكريم المغيلي، ورحل منها الركب يوم الاربعاء متوجهين لبلاد تدكلت، ثم واصلوا السير الى قرية تمقطن، ثم رحل زاوية أبي الانوار، و أقام بها ثلاث أيام، ثم رحل منها الى لأولف الأشرف ثم لزاوية تقرافت، ثم الى أولاد موسى، ومنها الى زاوية أبي نعامة، والذي أحيا سنة الحج من بلاد توات والتكرور، ومن هذه الزاوية وصولا الى عين صالح

59) المصدر نفسه، ج2، ص542-546.

60) نفسه، ج2، ص550-551.

61) محمد باي بلعالم: الغصن الداني في ترجمة وحياتة الشيخ عبد الرحمن بن عمر التتلائي، ص58 وما بعدها.

62) أحمد أبا الصافي جعفري: من تاريخ توات، منشورات الحضارة، الجزائر، ط1، 2011، ص456.

ركب الحج الجزائري والطريق الى بلاد الحرمين الشريفين خلال الفترة الوسيطة

واستمرت الرحلة في الأودية والصحاري الجزائرية والليبية الى أن وصلوا نهر النيل والقاهرة⁽⁶³⁾.

كما برز طريق طريق بسكرة - جاو: يربط طريق بسكرة بورقلة منها إلى عاصمة سنغاي جاو، مروراً بتوات⁽⁶⁴⁾. وتاغزة ثم تادمكة، و منها إلى جاو وهذا الطريق يذكره المؤرخون على أنه طريق ذو أهمية كبيرة غير أن ابن حوقل يقلل من قيمته، وطريق القيروان - توات سجلماسة⁽⁶⁵⁾: هناك طريق آخر يربط تهمرت بالقيروان عبر مدينة ورقلة، فتخرج القافلة من تهمرت إلى ورقلة ثم إلى بسكرة إلى القيروان، رغم إهمال الرحالة العرب له في مؤلفاتهم، إلا أنه كان مستعملاً⁽⁶⁶⁾.

ونظراً لما اشتهرت به أسواق توات من رخص وتنوع السلع وانتظام خروج ودخول القوافل تحولت إلى سوق تجارية مربحة بعد أن كانت نقطة عبور في الصحراء⁶⁷، يقصدها التجار من كل حذب وصوب، وقد جذبت أيضاً قوافل الحجاج العابرة للصحراء في طريقها

(63) أحمد أبا الصافي جعفري: المرجع السابق، ص 458-460.

(64) توات: مدينة جنوبية في المغرب الاوسط اسمها ربطه المؤرخ السوداني السعدي بمرض سلطان مالي كركاي موسى حيث أصيب بمرض في رحله أثناء مروره بالمنطقة وهو في طريقه الى البقاع المقدسة فيقي اسم المرض يميز المكان. عبد الرحمن السعدي: تاريخ السودان، طبعة هوداس، باريس، 1981، ص 21، وهناك من يرجع اسمها الى كلمة أعجمية أطلقتها قبائل لمتونة على هذا الاقليم عند لجوئها في منتصف القرن السادس الهجري. فرج محمود: تاريخ توات خلال القرن 18 و 19، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائرية، الجزائر، ص 2.

(65) سجلماسة: من أعظم مدن المغرب وهي على طرف الصحراء بينها وبين غانة مسيرة شهرين أسست سنة 140 هـ وهي مقصد للذاهب والوارد ولها إثنا عشر باباً. الحميري: الروض المعطار في خبر الاقطار، تحقيق إحسان عباس، مطبعة هيدلبرغ، بيروت، ط 2، 1984، ص 305-306.

(66) ابن حوقل: صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، لبنان، 1992، ص 90-91.

(67) جعفري مبارك بن صافي: من تاريخ توات أبحاث في التارث، ط 5، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة،

إلى الأراضي الحجازية حيث كانت هذه القوافل تنطلق من مدن سجلماسة وتافيلالت وشنقيط كل عام وتسلك أثناء سيرها نحو الشرق الطريق المار داخل إقليم توات⁽⁶⁸⁾.

إضافة إلى رحلة العياشي، الذي انطلق من بلدته وصولاً إلى سجلماسة يوم الخميس أول ربيع الثاني سنة 1072هـ/1661م للالتحاق بركب الحج المتوجه إلى بلاد الحجاز⁽⁶⁹⁾، وكان رئيس الركب هو سيدي محمد بن الولي الصالح سيدي محمد الحفيان⁽⁷⁰⁾.

وعند وصوله إلى سجلماسة يعطينا العياشي صورة عن وسائل النقل والركوب للحج متمثلاً في الخيل، والعلف الخاص بهم حيث يذكر " وكنا قدمنا معنا بثلاثة من الخيل واشترت آخر بسجلماسة وأعطيت أفضلها لأمر الركب، واستصحبت الثلاثة الباقية إلى توات، وكتب الأمير أيده الله إلى عكاله فيما استقبلنا من البلاد أن يمدونا بالمحتاج من علف إلى توات"⁽⁷¹⁾.

وقد مر الركب بعدة قرى بين سجلماسة وتوات منها قرية أجلى وهي أول قرى وادي الساورة⁽⁷²⁾، ثم قرية مازر ثم قرى بني عباس⁽⁷³⁾، ثم وصلوا إلى قرية يقال لها بشير، ثم قرية

68.عباس عبدالله: الدور الحضاري لإقليم توات، الملتقى الوطني الأول حول العلاقات الحضارية بين توات و

المغرب الإسلامي، أدرار، 2009، ص 538

(69) عبد الله بن محمد العياشي: الرحلة العياشية، ج1، ص39، 67.

(70) المصدر نفسه، ج1، ص72.

(71) العياشي: المصدر السابق، ج1، ص74.

(72) الساورة هي منطقة في الجنوب الغربي الجزائري، تضم حالياً ولاية بشار وأدرار وتندوف. أخذ الإقليم اسمه من الوادي الذي يخترقه من الشمال إلى الجنوب ومنبعه جبال الأطلس الكبير طوله 1200 كلم. فوزية كراز: المرجع السابق، ص15.

(73) وهي ثلاث قرى متصلة في جبل صغير على شفير وادي الساورة فيها نخل كثير وفاكهة وبساتين وفيها ساقية من الماء الجاري العذب. عبد الله بن محمد العياشي: المصدر نفسه، ج1، ص76؛ الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية، ج4، ص271.

ركب الحج الجزائري والطريق الى بلاد الحرمين الشريفين خلال الفترة الوسيطة

أخرى يقال لها بني خلف، وترك الركب قرى أولاد رافع عن يسارهم ثم قطع الحمادة وصولاً الى قرى تسابت وهي أول عمالة توات⁽⁷⁴⁾، وكلها قرى موجودة في المغرب الاوسط اعتاد ركب الحج السير عبرها.

ويقول العياشي ثم ارتحلنا من توات بعدما لحق بنا جملة ممن يريد الحج من أهلها يوم الخميس السابع من جمادى الأول وخلفنا قرى توات وراءنا وعدلنا ذات اليسار إلى بلاد أوكرت⁽⁷⁵⁾، ونزل بقرى الدغامشة⁽⁷⁶⁾، وهذا يبين أن ساكنة المغرب الاوسط شغوفة بالحج والتوجه الى الحرمين الشريفين من خلال قدومهم من كل القرى جماعات وفرادى تجمعهم الرغبة في زيارة بين الله الحرام رغم المخاطر التي تحيط بهم الطبيعية والبشرية.

وكان رحيل ركب الحج من أوكرت صبيحة يوم الثلاثاء الثاني عشر من جمادى الاولى قاصدا واركلا⁽⁷⁷⁾، حيث خرج معهم جملة من أهلها قاصدين للحج وسلكوا طريق وادي إيمكيدين، مع دليل من عرب الخنافسة لمعرفته بالطريق ومواطن المياه⁽⁷⁸⁾.

74) عبد الله بن محمد العياشي: المصدر نفسه، ج1، ص78-79.

75) المصدر نفسه، ج1، ص80.

أوكرت: من القرى الكبيرة الواقعة في آخر بلاد توات. ابن المليح: أنس الساري والسارب من أقطار المغرب الى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب، تحقيق محمد الفاسي، فاس، 1968، ص30، وهي آخر البلاد التي هي تحت طاعة الشريف صاحب سجلماسة. عبد الله بن محمد العياشي: المصدر نفسه، ج1، ص107.

76) عبد الله بن محمد العياشي: المصدر نفسه، ج1، ص80.

الدغامشة: ضبطها ابن المليح بالعين وسماها الصغير الافراني في الصفوة الدغامسة وهي قرى كثيرة بقرب بلاد توات. أنس الساري والسارب، ص30؛ و صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، تحقيق عبد المجيد خيالي، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء المغرب، ط1، 2004، ص169.

77) واركلا: مدينة في طرف الصحراء مما يلي إفريقية بينها وبين القيروان 31 يوم وهي محط القوافل التجارية. الحميري: المصدر السابق، ص600.

ثم واصل الراكب طريقه من قرية والا ونزل ضحى بينها وبين القليعة⁽⁷⁹⁾، وهي في طاعة سلطان واركلا وتعرف ببلدة سيدي الشيخ وأولاده حتى الآن يدعون أولاد سيدي الشيخ، وهو ولي صالح ثابر على فعل الخيرات من جهاد وحج، فقد أفنى عمره في التردد على الحرمين الشريفين⁽⁸⁰⁾، وكلام العياشي يؤكد استمرار الرحلات الحجبية من المغرب الاوسط الى الحجاز عبر مختلف العصور و الفترات التاريخية.

ثم ارتحل من واركلا يوم الاثنين ونزل ببلدة قريبة منها على نصف مرحلة تسمى مكوسا وهم في طاعة وادي ريغ، ثم واصلوا الطريق الى وادي ريغ في طريق ذات رمال لا يهتدى فيها إلا من مارسها كثيرا، وقد مر الراكب ببلدة يقال لها أكرك وهي أول بلد وادي ريغ، ثم بلدة تماسن وهي بلدة كثيرة العمارة والنخيل وأميرها ابن عم أمراء تكرت وهو كالمستقل في بلده وأجزل ضيافة الحجاج⁽⁸¹⁾.

ومنها إلى توكرت⁽⁸²⁾ قاعدة وادي ريغ، وكان ذلك يوم السبت 14 جمادى الثانية، ونزلوا بباب المدينة المسمى باب السلطان، وصادف دخولهم اليها دخول قافلة من أعراب الأرباع قدمت بسمن كثير وغنم وابل وزرع⁽⁸³⁾.

ومنها إلى سوف أو وادي سوف، حيث خرج الراكب من تكرت يوم الأربعاء 18 جمادى الثانية، في بلاد ذات رمال كثيرة، وخط من النخل مستعرض في وسط الرمل قد غلب على

78) عبد الله بن محمد العياشي: المصدر نفسه، ج1، ص107.

79) القليعة تصغير قلعة وهي قرية حصينة على حجر صلد في سفح جبل منقطع عنه وبها آبار كثيرة طيبة الماء ونخيل ليس بكثير. عبد الله بن محمد العياشي: المصدر نفسه، ج1، ص111.

80) عبد الله بن محمد العياشي: المصدر نفسه، ج1، ص111.

81) المصدر نفسه، ج1، ص119

82) توقرت أو توكرت مدينة بالقرب من درجين وبالقرب من نفطة من بلاد الجريد. الحميري: المصدر السابق، ص33.

83) عبد الله بن محمد العياشي: المصدر نفسه، ج1، ص114، 120.

ركب الحج الجزائري والطريق الى بلاد الحرمين الشريفين خلال الفترة الوسيطة

أكثره، وفيه بلاد عديدة، وماؤها طيب غزير قريب من وجه الأرض، ثم نزلوا على ماء يقال له الريح، ومنه الى العلندا⁽⁸⁴⁾.

ومنها نحو احدى قرى نفزاوة⁽⁸⁵⁾ بالمغرب الادنى، وبلاد نفزاوة هذه قرى كثيرة تقرب من الألف، كل قرية منفردة وحدها على نشز من الارض بنخل مجتمع بإزائها، وفي اليوم الثالث رحلوا من نفزاوة تاركين جبال مطماطة على يمينهم وهي تابعة لعمالة قابس أين صادفوا مراد باي بن حمو باي عامل تونس⁽⁸⁶⁾.

وقد مر الركب بقرى متعددة منها قرية عرام الصغيرة والتي التقى فيها مع ركب أهل تونس القافلين من الحجاز⁽⁸⁷⁾، وهذا يدل على أن الطريق معتادة السلك والاتباع من قبل الحجاج، وبعده بمسافة قصيرة إتقوا بركب حجاج الجزائر، بمنطقة الزاوية الغربية، وكان وفدهم قافلا من الحجاز ومعهم سيدي عبد الحفيظ ابن الوالي الصالح سيدي محمد الصيد الطرابلسي، متوجها الى جزيرة جربة، وكان امير ذلك الركب سيدي محمد بن المسعود من بلاد سدوكال- واعتقد أنها مدوكال وهناك خطأ مطبعي للنساح-وله رباغ ببسكرة وربما استوطنها، وكان والد الأمير المذكور من أهل الصلاح، وممن كان يتردد بالركب الشريف، ومما لقي

84) المصدر نفسه، ج1، ص122-123.

85) نفزاوة: مدينة من أعمال إفريقية قال عنها البكري: وتسير من القيروان إلى نفزاوة ستة أيام نحو المغرب ومدينة نفزاوة عين تسمى بالبربرية تاورغي وهي عين كبيرة لا يدرك قعرها وللمدينة نفزاوة سور صخر وطوب ولها ستة أبواب وفيها جامع وحمام وأسواق حافلة وهي كثيرة النخل والثمار وبين مدينة نفزاوة وقابس ثلاثة أيام، وقد ضبطها ياقوت الحموي بكسر النون وبأنها مدينة من أعمال إفريقية ووردت عند ابن خلدون بفتحها. البكري: المسالك والممالك، تحقيق جمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1، 2004، ج2، ص224؛ ومعجم البلدان، دار صادر، بيروت، ج5، ص296؛ التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، دار الكتاب اللبناني، 1979، ص248.

86) عبد الله بن محمد العياشي: المصدر السابق، ج1، ص125، 127-128.

87) المصدر نفسه، ج1، ص129.

العياشي في هذا الركب الحاج الأبر الشيخ إبراهيم بن جلاب الريغي أخو الأمير العادل الشيخ أحمد والد أمير بلاد ريغ في هذا العهد، وكان مجاورا بالحرمين عدة من السنين⁽⁸⁸⁾. ثم ارتحل الوفد قاصدا مدينة طرابلس⁽⁸⁹⁾، ودخلوها ظهر يوم الاربعاء في السابع عشر رجب الفرد وهي مدينة مساحتها صغيرة وخيراتها كثيرة، وكان عادة الركب إذا دخل هذه المدينة سيما في الذهاب، أن يقيموا بها نحو من شهر يستعدون فيها لدخول المفازة التي قل نظيرها، وهي مفازة برقة⁽⁹⁰⁾، ومن هذه المدينة يشتري الحجاج ما يحتاجون من الابل والقرب ويتخذون زاد نحو ثلاثة أشهر الى مصر⁽⁹¹⁾.

ومن مصر يتوجه وفود الحجيج المغاربة الى بلاد الحجاز في نفس الطريق القديم المعتاد.

أما طريق عودة العياشي الى موطنه مارا بالمغرب الاوسط "الجزائر" رفقة ركب الحج فقد كان مختلفا، حيث تم سلك الطريق الداخلية أو ما يعرف بطريق الهضاب.

ج) الطريق البحري:

88) نفسه، ج 1، ص 133.

89) طرابلس: مدينة كبيرة أزلية على ساحل البحر بها أسواق حافلة وحمامات كثيرة وبينها وبين سرت عشر مراحل وفيها رباطات كثيرة يأوي إليها الصالحون. الحميري: الروض المعطار في خبر الاقطار، تحقيق احسان عباس، مكتبة لبنان، د ت، ص 389.

90) عبد الله بن محمد العياشي: المصدر نفسه، ج 1، ص 125.

91) برقة مدينة كبيرة بين الاسكندرية وإفريقية، بينها وبين البحر ستة أميال. الحميري: الروض المعطار، ص 91.

ركب الحج الجزائري والطريق الى بلاد الحرمين الشريفين خلال الفترة الوسيطة

ظهر دوره جليا بعد غزو بني هلال لبلاد المغرب، حيث أصبح الحج برا مستحيلا، وأن السفر على سفن مسيحية أثار مشاكل شرعية وعملية، كما تعرضت المراكب في البحر إلى خطر الرياح الشديدة كما حدث سنة (507هـ/1113م)⁽⁹²⁾.

كما أن تأثير الاحوال السياسية كان واضحا من خلال اعتراف المرابطين بالخلافة العباسية، الأمر الذي أدى بالخلافة الفاطمية الى التضييق على الحجاج المغاربة في مصر، حتى أصبح الحجاج المغاربة يعدلون عن طريق مصر⁽⁹³⁾.

وكثر بسبب ذلك استعمال الطريق البحري الذي يمر بالمدن الايطالية والصقلية، ومن صقلية الى عكا وأصبح المغاربة يفضلون طريق عكا بسبب المضايقات التي يتلقونها من المصريين، ولاسيما في بدايات النصف الثاني من القرن 6هـ/12م⁽⁹⁴⁾.

وقد ذكر ابن جبير، وبين الظلم الذي كان المغاربة يتعرضون له في المشرق على أيدي موظفي الدولة خاصة في مصر، يقول "كما أنه لا عدل ولا حق ولا دين على وجهه إلا عند الموحدين، أعزهم الله، فهم آخر أئمة العدل في الزمان وكل من سواهم من الملوك في هذا الأوان فعلى غير الطريقة يعشرون تجار المسلمين كأنهم أهل ذمة لديهم، ويستجلبون أموالهم بكل حيلة وسبب، ويركبون طرائق من الظلم لم يسمع بمثلها اللهم إلا هذا السلطان العادل صلاح الدين"⁽⁹⁵⁾.

92) يمكن القول أن كبار الفقهاء في العصر الصنهاجي أمثال عبد الخالق بن عبد الوارث أبو القاسم السيوري وهو من كبار علماء المذهب المالكي وأبو عبد الله محمد بن أبي الفرج المازري لم يحجوا وكانوا يرون أنه يتعذر أداء فريضة الحج بالنظر إلى المخاطر المترتبة عليها. وجدان فريق عناد: المرجع السابق، ص74.

93) عز الدين موسى: النشاط الاقتصادي في المغرب الاسلامي خلال القرن السادس الهجري، دار الشروق، بيروت القاهرة، 1983، ص268-269.

94) المرجع نفسه، ص321-322؛ وجدان فريق عياد: المرجع السابق، ص75.

95) الرحلة، دار صادر، بيروت، 1959م، ص56.

ذكر ابن القطان أن ابن تومرت توجه الى الحج الى بلاد الحجاز متجها الى الاندلس وجاز من مرسى ألمرية بمركب نحو الشام ومنها الى الحجاز⁽⁹⁶⁾، ودعم ذلك ابن خلدون الذي زاد بأنه درس في قرطبة ومنها جاز عبر البحر الى الاسكندرية ومن هذه الاخيرة تحول الى مكة برا⁽⁹⁷⁾ وهذا يدل على أن بعض المغاربة ومنهم أيضا حجاج بلاد المغرب يستخدمون الطريق البحري للحج.

يذكر ابن خلدون رحلة حجية قام بها كبار رجال الدولة الزيانية سنة 724هـ منهم حاجب السلطان الزياني أبي تاشفين وهو هلال مولى يعي بن موسى، حيث أقلع من مرسى هنين بساحل تلمسان في عدة سفن اشتراها بماله الخاص وشحنها بالقوت والرجال، ونزل في ساحل الاسكندرية، ثم صحب ركب الحج من القاهرة برا ولقي في طريقه سلطان السودان من مالي منسى موسى ونشأت بينهما علاقة صداقة⁽⁹⁸⁾.

96) ابن القطان: نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تحقيق محمود علي مكّي، دار الغرب الاسلامي، ط1، 1990، ص62.

97) العبر، ج6، ص301-302.

98) يقول بن خلدون: هلال أصله من سبي النصارى القطلونيين، أهدها السلطان ابن الأحمر إلى عثمان بن يغمراسن، وصار إلى السلطان أبي حمو، فأعطاه ولده أبا تاشفين فيما أعطاه من موالى العلوجي، ونشأ معه تريبا، وكان مختصا عنده بالمداخلة والدالة، وتولى كبر تلك الفعلة التي فعلوا بالسلطان أبي حمو. ولما ولي بعده ابنه أبو تاشفين ولاه على حجابته، وكان مهيبا فظا غليظا، فقعده مقعد الفصل ببابه وأرهب الناس سطوته، وزحزح المرشحين عن رتب المماتلة إلى التعلق بأهدابه، فاستولى على أمر السلطان. ثم حذر مغبة الملك وسوء العواقب، واستأذن السلطان في الحج وركب إليه من هنين بعض السفن اشتراها بماله وشحنها بالعديد والعدة والأقوات والمقاتلة وأقام كاتبه الحاج محمد بن حوته بباب السلطان على رسم النيابة عنه. وأقلع سنة أربع وعشرين فترل بالإسكندرية، وصحب الحاج من مصر في جملة الأمير عليهم، ولقي في طريقه سلطان السودان من مالي منسى موسى، واستحكمت بينهما المودة. ثم رجع بعد قضاء فرضه إلى تلمسان، فلم يجد مكانه من السلطان. ولم يزل بعد ذلك يتنكر له وهو يسايسه بالمداخلة والاستجداء إلى أن سخطه؛ فتقبض عليه سنة تسع وعشرين وأودعه سجنه؛ فلم يزل معتقلا إلى أن هلك. العبر، ج7، ص152؛ ومحمد بن معمر: المرجع السابق، ص286.

الخاتمة:

-عرف المغرب الأوسط الجزائر" الحج منذ بداية الفتح الاسلامي، وكان بمبادرات شخصية سواء خلال العهد الرستمي أو الحمادي، وبدءا من العهد الموحي ظهر الموكب الرسمي ليصبح أكثر تنظيما في العهد الزياني والمريبي.

-اهتم سكان المغرب الاوسط "الجزائر" بركب الحج وهيئوا له المسالك والطرق من خلال توفير مختلف السلع وحفر الأبار وتوفير الأمن بل وحتى تقديم المساعدات المالية والمثونة الممكنة.

- اختلفت طرق الحج والمسالك من فترة لآخرى ومن مكان لآخر في بلاد المغرب الأوسط حيث تعددت بين الطريق البري الشمالي، الذي ينطلق عادة من تلمسان ومليانة مرورا بالشلف وميلة وصولا الى قسنطينة ثم بونة وتونس ومنها الى الاسكندرية، إضافة الى الطريق الصحراوي القادم من توات مرورا بالساوره واركلا وتوقرت وصولا الى نفزاوة بليبيا ثم الى القاهرة، وهناك الطريق البحري الذي برز أثناء انفلات الامن وسيطرة قطاع الطرق على المسالك البرية حيث كانت الاندلس وصقلية أهم منطقاته.